علاقةُ الأخلاقِ بالعملِ

﴿..رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

المرجع الدِّينيّ الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ*

يُلفتُ المرجع الدّينيّ الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ إلى مسألة بالغة الأهميّة هي خلافُ المرتكز في الأذهان غالباً، من أنّ أعمال الإنسان لا تَعدو كَونها نتاجَ أخلاقه، مبيّناً أنّ للأعمال أيضاً دوراً أساسيّاً في صياغة الأخلاق، وأنّ بينَهما علاقة تبادليّة؛ فسلوكُ الإنسان يحكي صفاته الباطنيّة، وفي الوقت نفسه يؤدّي تكرارُ سلوكٍ بعينه إلى صيرورته ملكةً أخلاقيّةً راسخة، وعلى ذلك شواهدُ قرآنيّة كثيرة.

لا ريب في أنّ أعمالَ الإنسان تَتبعُ أخلاقَهُ الظّاهريّة والباطنيّة، بُحيث يمكن القول إنّ الإنسان يَتأثّر في سلوكه العمليّ بأخلاقِه الباطنيّة الكامنة في عالَمِ اللّاشُعور. ولكن من جهةٍ أُخرى، يُمكن لأعمال الشّخص أن تؤثّر في أخلاقه، من خلالِ صياغتها لمضمون الصّفات الأخلاقيّة في واقعه وفي مُحتواه الباطنيّ.

معنى ذلك، أنّ الممارسة المستمرّة لعملٍ ما، حَسَناً كان أم قبيحاً، ستؤثّر في نفسيّة الإنسان، وتُحوّل ذلك العمل إلى حالةٍ باطنيّةٍ، ومن ثمّ إلى مَلَكةٍ أخلاقيّةٍ حسنةٍ أو قبيحة. وبناءً عليه، فإنّ من الطُّرق المؤثّرة في تهذيب النّفس، هي تهذيبُ الأعمال في حَركةِ الواقع الخارجيّ؛ فمَن مارَسَ الأعمالَ القبيحة، فسوف تتحوّل على إثرِ التّكرار إلى مَلَكَةٍ سيّئةٍ في أعماق رُوحه، وتكون السّببَ في ظهورِ الرّذائل الأخلاقيّة في دائرة السّلوك والممارسة.

ولأجل ذلك، نلحظُ الحثَّ الشّديد، في الرّوايات، على المبادرة السّريعة إلى الاستغفار عند ارتكاب المعاصي، لِمَحو أدرانِها وآثارها بماء التّوبة، حذرَ تراكُم هذه الآثار السّلبيّة على القلب، وصولاً إلى حيث تصير ملكاتٍ أخلاقيّةً رذيلة.

وفي المقابل، نَجِدُ التّرغيب والدّعوة إلى المداومة على الأعمال الصّالحة، كي تُصبح عادةً عند الإنسان، في واقعه النّفسيّ والرّوحيّ.

شواهد قرآنيّة

بعد هذه الإشارة، نستعرض عدداً من الآيات القرآنيّة المباركة الّتي تُشير إلى هذا المعنى:

١- ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ المطففين:١٤.

في هذه الآية، نَجِد إشارةً إلى التّأثيراتِ السّلبيّة للذّنوب في قلبِ الإنسان وروحِه، فهي تسلبُه الصّفاء والنّورانيّة، وتستبدلهما بالظُّلمة والشّقاء.

وفي قوله تعالى: ﴿..مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ المطففين:١٤، الذي وردَ بصيغة الفعل المضارع، دلالةٌ على الاستمرار، بمعنى أنّ المداومة على القبائح يُنتجُ الرَّينَ -وهو الصَّدَأ- الذي يُغلِّف مرآة القلب ويكدِّرُها، سالباً إيّاها النّور والشّفافيّة والصّفاء.

٢- ﴿..كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يونس:١٢.

تُشير هذه الآية إلى ما يتعدّى مرحلة الرَّين، وتتحدَّث عن مرحلة «التّزيين». وبناءً عليه، فالتّكرار لعملٍ مّا، يبعثُ على تزيينه في عينِ الإنسانِ ونَظَرِه، فتَألَفُه نفسُه، حتّى أنّه يَعدّه من المواهب والافتخارات الّتي يمتازُ بها عن الآخَرين.

وقوله تعالى: ﴿..مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وكذلك قولُه: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ دليلٌ واضحٌ على تكرارِ الذّنوب من قِبَلِهم، بل والإسراف والمبالغة في ذلك، فالتّكرار لها لا يمحو قُبحَها فقط، بل وبالتّدريج ستتحوّل الخطيئةُ إلى فضيلةٍ في نَظَرهم، وهذا يعني -في الحقيقة- المَسْخَ لشخصيّة الإنسان، وهو من النّتائج المشؤومة لِتكرار الذّنوب.

وإلى هذا المعنى أيضاً تشير الآيتان الكريمتان: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا..﴾ فاطر:٨، و﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ النمل:٢٤.

٣- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف:١٠٣-١٠٤.

---

* مقتطف بتصرّف من كتابه (مقدّمات في الأخلاق)

تعدّدت أقوال المفسّرين في مصداق هذه الآية، فقيل إنّ «الأخسرين أعمالاً» هم المُنكرون لولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وقيل إنّهم رُهبان النّصارى، زعموا أنّ الصّواب في تحريم ما أحلّ الله تعالى، وقيل إنّهم أهلُ البِدع من هذه الأمّة ومن الأمم السّابقة، أو أنّهم خوارجُ النّهروان. والحقّ أنّ كُلّاً من هؤلاء يجوز أن يكون مصداق الآية، فهم يجمعُهم العُجب واتّباعُ هوى النّفس وتجنُّبُ التّعبُّد بما أمر به المولى. لقد أدمنَ هؤلاء ارتكاب المعاصي، وتجاوزوا مرحلة الإعجاب بها، فصاروا يعتقدون بأنّها الصّوابُ الذي لا صواب بعدَه.

وفي الآية التي تليها، يبيّن اللهُ تعالى جزاء هذه الفئة الموصوفة بـ «الأخسرين أعمالا»: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ..﴾ الكهف:١٠٥. ومن المعاني اللّغويّة المعروفة لـ «الحَبَط» هو أنْ تأكل البعيرُ حتّى تنتفخ بطونُها، فلا تمتنع عن الأكل حتّى تموت، ويحسبُه الجهّال دليلاً على قوّتها، ولكنّه في الواقع مقدّمة لهلاكها، وإنْ كانت تستمتعُ به.

٤- ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء:١٧.

تتناول هذه الآية مسألة قبول التّوبة من قِبَل الله تعالى، لِمَن تتوفّر فيهم بعض الشّرائط:

أ- الّذين يعملون السّوء بجهالةٍ ولا يعرفون عواقب الذّنوب على نحوِ الحقيقة.

ب- الّذين يُسارعون إلى التّوبة من أعمالهم القبيحة، ولا يُسوّفونها، فهؤلاء هم الّذين تشملهم الرّحمة الإلهيّة، ويقبلُ اللهُ تعالى توبتَهم.

والمُراد من كلمة «الجهالة»، الّتي وَرَدت في الآية ليس هو الجهلُ المُطلَق الّذي يوجبُ العُذرَ، لأنّ العمل في حالاتِ الجهلِ المُطلَق لا يُعَدُّ من الذّنب، بل هو الجهلُ النّسبيّ الّذي لا يُعلَم معه عواقب الذّنوب وتبعاتُها في حركةِ الواقع والحياة.

وأمّا جملة: ﴿..يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ..﴾، فقال البعضُ إنّها قبل الموت، ولكن إطلاق كلمة «قريب» على فترة ما قبل الموت، الّتي ربّما تستغرق خمسين سنة وأكثر، لا تؤيّد هذا التّفسير.

وقال البعضُ الآخَر، إنّها الزّمان المقارب لارتكاب الذّنب، حتّى تمسحَ التّوبةُ الآثارَ السّيّئة للذّنب في رُوح الإنسان ونفسِه، وفي غير هذه الصّورة، فستَبقى الآثارُ في القلب، وهذا التّفسير هو ما يناسب كلمة «القريب» عُرفاً ولغةً.

٥- ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا..﴾ التوبة:١٠٣.

هذه الآية تناولَت «قضيّة الزّكاة» ومترتّباتها الأخلاقيّة والمعنويّة في خطّ التّربية وتهذيب النّفس، ولأجل ذلك ورد الأمرُ من الله تعالى إلى مولانا رسول الله صلّى الله عليه وآله باستيفائها من النّاس. وليُلاحَظ هنا، أنّ إخراج الزّكاة يحدّ من الرّكون إلى الدّنيا وزخارفها، ويَقمع البُخلَ في واقعِ النّفس البشريّة، ويحثّ الإنسان على مراعاة حقوق الآخرين، ويغرس فيه حبّ السّخاء والإنسانيّة.

من الطُّرُق المؤثّرة في تهذيب النّفْس، هي تهذيبُ الأفعال، لأنّ الممارسة المستمرَّة لعملٍ ما، حَسَناً كان أم قبيحاً، تُحوِّله إلى حالة باطنيّة، ومن ثمَّ إلى مَلَكة أخلاقيّة.

وعلاوةً على ذلك، فإنَّ دفعَ الزّكاة يقفُ بوجه المفاسد النّاشئة عن الفقر والحرمان، وبأداء تلك الفريضة الإلهيّة، نكون قد شاركنا في إزالتها نهائياً من واقع المجتمع، لذلك فإنّ الزّكاة تُسهمُ في رفع الرّذيلة والفقر في حركة الإنسان والحياة، وتُحلّي الإنسان بالفضائل الأخلاقيّة. وقد علمتَ أنّ موضوع بحثنا هو دور العمل الصّالح والطّالح في تحريك عناصر الخير والشّر، والفضائل والرّذائل الأخلاقيّة، في واقع الإنسان والمجتمع.

وقد جاء نظيرُ هذا التّعبير -في آيةِ الحجاب، يقول تعالى: ﴿..وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ..﴾ الأحزاب:٥٣. فهذه الآية الشّريفة، تُبيّن بوضوحٍ أنّ التّعفُّف في العمل يَبعثُ على طهارةِ القلب ونظافتِه، وبالعكس فإنّ الجرأة على ارتكاب المُنكر وعدم الحياء يلوّث روحَ الإنسان وقلبَه، ويُعمّقُ في نفسِه المَيلَ إلى الرّذائل الأخلاقيّة.

المغيَّبات

الرّوح ليست موضوعاً لأداة التّجربة

العلّامة الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين رحمه الله

في كتابه (دراسات في نهج البلاغة) الصّادر سنة ١٩٥٦م، وفي مستهلّ الكلام عن إخبارات أمير المؤمنين عليه السلام بالحوادث الآتية، يعقد الشّيخ محمّد مهدي شمس الدّين فصلاً كاملاً للحديث عن «المغيّبات»، لافتاً في أثنائها إلى أنّ «الملكات النّفسيّة الخارقة» الكامنة في الإنسان تُعدّ من الحقائق العلميّة، وذلك بعد دراسات عديدة أُجريت في المعاهد والجامعات الغربيّة بدءاً من العقد الأخير من القرن التّاسع عشر، كما تؤيّد النّظريّات الفيزيائيّة والرّياضيّة الإحصائيّة نتائج هذه الدّراسات، وإن كان يُكتّم عليها بشكل أو آخر. ما يلي، القسم الأوّل من «فصل المغيّبات»، مهَّدَ فيه الشيخ شمس الدّين للحديث المسهَب والموثّق عن الأبحاث العلميّة المشار إليها.

في ناسِ هذا العصر مَن إذا وَقعَت أبصارُهم على هذا العنوان طاف على ثُغورهم شبحُ ابتسامة، ولاحَ في أعيُنِهم بريقُ الهُزْء، واتَّسَمت معالمُ وجوهِهم بأمارات الاستنكار. ولِمَ كلّ هذا؟ لأنّنا في هذا العصر الآليّ لا نستطيع -إذا أردنا أنْ نَحترمَ أنفسَنا وعقولَنا- أنْ نؤمنَ بوجودِ إنسانٍ يَعلم الغَيْب، إنسانٍ تَنقَشِعُ من أمام عينَيه حُجُب القرون وتَطوي المسافات، فيَقرأ المستقبلَ البعيد أو الخاطر المَحجوب كما يَقرأ في كتابٍ مفتوح، ويَعي حوادثَه كأنّها بنتُ السّاعة الّتي هو فيها.

وكلُّ إنسانٍ يقول هذا، فلا بدَّ أن يكون واحداً من اثنين: إمّا مجنوناً، وإمّا جاهلاً بما قُدِّر للعقل الإنسانيّ أنْ يَعيَهُ من نظام الكون. وقد لا يقولون هذا بألسنتِهم، ولكنَّهم يقولونه بوجوههم وأيديهم.

في ناسِ هذا العصر مَن يقولُ هذا.

الإنسان الآلة

وطبيعة الثّقافة المُنحرفة الّتي يلقاها إنسانُ هذا العصر في كلّ مكان هي الّتي تدفع بهؤلاء إلى أن يَقفوا هذا الموقف، ويتَّجهوا هذا المُتَّجه، في إنكار كلّ دعوى تذهب إلى أنَّ في الإنسان شيئاً آخر وراءَ غُددِهِ وخلاياه.

الثّقافة الحديثة هي الّتي تفرض على الإنسان مثل هذا الموقف؛ فهذه الثّقافة تَعتبرُ الإنسانَ «آلة»، آلةً دقيقةَ الصُّنع فقط، وهي تَخضع في عمليّاتها لقانونِ الآلة وحده، فلا شيء وراء الغُدد والأعصاب يمكن أن يُعتبَر موجِّهاً للنّشاط الإنسانيّ وباعثاً له.

هذه النّظريّة، نظريّة الإنسان الآلة، وَجَدَت أوّل تعبيرٍ لها على لسان ديكارت Descartes في فلسفتِه حينما اعتَبَر الإنسانَ آلة، وأنشأ ثنائيّةَ النّفس والجسد، ثمّ وَجَدَت تعبيراً أشدّ صراحة على لسانِ توماس هوبس Thomas Hobbes في فلسفته الميكانيكيّة، والّذي جرَّد الكائنَ الإنسانيَّ من كلّ قوّةٍ غير مُدركة. وبينما كان ديكارت يعترف بنشاطٍ داخليٍّ سمّاه «الأفكار الباطنيّة»، نرى هوبس قد تنكَّر لهذا وأرجع مضمون الفكرة إلى الخبرة الحسّيّة وحدها.

وبين القرنَين -الثّامن عشر والتّاسع عشر- ساهمت علومٌ أُخَرَ غير الفلسفة في تأكيد هذه النّظريّة. ومهما تكن حظوظُ هذه العلوم من قوّة التّأثير وضعفها في صياغة هذه النّظرية وإقرارها، فلا مراءَ في أنَّ علمَ النّفس المُعاصِر من أعظم العلوم أثراً في تأكيدها.

فقد بدأ علمُ النّفس عهدَه التّجريبيّ في أواخر القرن التّاسع عشر (١٨٧٩م) على يد فيلهلم فونت Wilhelm Wund الّذي أسَّس «سيكولوجيا الاستبطان»، والذي حاوَلَت مدرستُه إحلال كلمة «شعور» المُرادِفة للحسّ في العمليّات النّفسيّة محلّ كلمة «روح»، الّتي هي إرثٌ دينيٌّ وغيرُ مُدرَك. وبعدها تتابَعَت المدارسُ النّفسيّة: السّلوكيّة، التّحليل النّفسيّ، علم النّفس التّحليليّ، علم النّفس الفرديّ، الجشطلت Gestalt، ... وكلُّها تَتنكَّر للرُّوح، ولأيِّ قوّةٍ غيبيّةٍ أخرى، وتردُّ السّلوكَ الإنسانيَّ إلى إفرازاتِ

الغدد، وعمليّات الجهازَين الحشويّ والعصبيّ، واللّاوعي، والغرائز.

وقد بَلغَ التَّعصُّبُ لهذه العلوم ذروتَه في القرن التّاسع عشر، ففيه استَحوَذ الغرورُ على العلماء المُحدَثين، وظنُّوا أنّهم قد تمكّنوا من اكتشاف جميع القوانين الميكانيكيّة الّتي تُسيِّر الكون، وذهبوا إلى أنّ كلّ دعوى يُراد منها إثبات أنّ ثمّة قوى غير مُدرَكة تُهيمن علينا، وتتحكَّم فينا، هي دعوى خرافة ذَهب زَمَنُها، خرافة صنَعَها الإنسانُ يوم كان أُفُقُ تفكيره غائماً وضبابيّاً إلى حدٍّ يُثير الإشفاق. ولعلَّ من الخير لنا أن نتبيَّن الأساس الّذي يقومُ عليه إنكارُ الرُّوح في الثّقافة الحديثة.

هَوَس التّجريب

الميزةُ الكبرى للحضارة الحديثة الّتي هي مُعطًى للثّقافة الحديثة أنّها حضارة التّجريب، فكلُّ شيءٍ يجب أن يخضع للتّجربة المعمليّة ليَصحّ أن يؤمن به، فإذا لم يَخضع للتّجربة لم يَصحّ أن يؤمن به، كما لو خضع لها وكَشَفَت زَيْفَه. وقد عاد هذا الاتّجاه التّجريبيّ على الحضارة بما لا يُتصوَّر مدى خطْبه من النّتائج، ولكنّ الخطأ وَقع حين داخَلت العلمَ العزّةُ بنفسِه، فادَّعى أنَّ بوسعه أن يُدخِلَ الإنسانَ إلى المعمل ويجعلَه موضوعاً للتّجريب. وليس الإنسان موضوع التّجريب هنا هو هذه الكتلة من اللّحم والعظم المشدودة إلى بعضها بجهازٍ من العصب، وإنّما هو النّفس الإنسانيّة. فقد ادَّعى العلمُ الحديث أنَّ بإمكانه أن يفحص صحّة الدّعوى الكبرى القائلة بوجود الرُّوح والنّفس، ليُثبتَ صحَّتها أو بطلانها، عن طريق التّجربة المعمليّة. وقد اضطلع بهذه المهمّة عِلْمان تجريبيّان، هما الفيزيولوجيا والسّيكولوجيا، هذان العِلْمان أدخلا الإنسانَ إلى المعمل ليريا أحقٌّ ما يقال من أنّ وراء هذه التّشكيلة الدّقيقة من الغدد والخلايا والأجهزة العصبيّة والحشويّة، شيئاً يُسمّى نفساً وروحاً، أو أنّ هذه خرافة من جملة الخرافات؟

ولقد كانت النّتيجة بطبيعة الحال -وهذا شيءٌ كان من الممكن أن نجزم به سلفاً- هي أنّ لا روحَ ولا نَفْسَ ولا شيءَ وراء جسم الإنسان.

وأُذيعت هذه النّتائج على أنّها «حقائق» أثبتَها العلمُ التّجريبيّ وآمنَ بها النّاس، لأنّ العلمَ التّجريبيّ والتّطبيقيّ، الّذي أَخضعَ الأمراضَ لِسلطانِه، وكَشَفَ عِلَلَها ووَضَع أدويتَها، والّذي لا

> **لا يُمكن للرُّوح أن تقع موضوعاً صالحاً لأداة التّجربة المعمليّة. فالباحثون عنها لا يجرأون على القول بأنّها شيءٌ ذو كيان يُمكن أن يَصِل إليه الحسّ، أو ما يصطنعُه الإنسان من أدوات.**

يزال يُفاجئنا كلّ يوم بجديدٍ، لا يمكن أن يستعصي عليه هذا الموضوع.

وعلى هذا النّحو المسرحيّ حُلَّت المشكلة -أعقَد وأعضَل مشكلة واجَهَت العقل الإنسانيّ منذ القِدَم- واعتُبِرَ أمرُ الرّوح الإنسانيّة قد انقضى.

ونقولُ كلمتَنا في المسألة

نحن نؤمنُ بالعلم قوّةً في يد الإنسان، وسبيلاً إلى إنماء الحياة الإنسانيّة وإغنائها. ونحن نؤمن بالتّجربة منهجاً للبحث أفضل من جميع المناهج الأُخَر. ولكنّنا نؤمن بالعلم إلى حدٍّ محدودٍ، ونؤمن بالتّجربة منهجاً للبحث في ما هو قابل للتّجربة. إنَّ الميدان الأصيل للعلم التّجريبيّ هو الموضوع القابل لأن يقع تحت أدوات التّجريب: يد الإنسان وعينه وحاسّة الشّمّ فيه وموازين الحرارة والضّغط والمشارط وأنابيب الاختبار وما إليها. فكلّ موضوع خارجيّ يصلح أن يقع تحت أداة التّجريب يصلح أن يكون ميداناً للعلم الّذي يَستخدم هذه الأداة، ويمكن أن يُتوصَّل فيه بواسطتها إلى نتائج معتمدة نسبيّاً.

ونتساءل: هل الرُّوح من هذا القبيل؟ وهل يمكن أن تقع موضوعاً صالحاً لأداة التّجربة المعمليّة؟ اللّهمّ لا! فالباحثون عنها لا يجرأون على القول بأنّها شيءٌ ذو كيان يمكن أن يَصِل إليه الحسّ أو ما يصطنعه الإنسان من أدوات.

ونتساءل كرّةً أخرى: إذا كانت الرُّوح شيئاً لا يمكن أن يقع موضوعاً لأداة التّجربة، فكيف يصحّ أن تُتَّخذ هذه الأداة سبيلاً إلى البتِّ في أمرها؟

نعم، إنّ «أساطين» السّيكولوجيا -وخاصّة السُّلوكيُّون- والفيزيولوجيا يقولون لنا إنّ باستطاعتهم أن «يختبروا» وجود الرُّوح عن طريق مراقبة الانفعالات الّتي تطرأ على مختلف أجهزة الإنسان، بفعل السّوائل الكيماويّة المختلفة.

طبيعة الثّقافة المُنحرفة الّتي يلقاها إنسانُ هذا العصر هي التي تدفع إلى إنكار كلّ دعوى تذهب إلى أنَّ في الإنسان شيئاً آخر وراء غُدَدِه وخلاياه.

ونتساءل ثالثة: هل عواطف الإنسان ومطامِحُه وأفكاره تتجمَّع كلّها في بضعةٍ من عَصَب، تنفعلُ بالسّوائل الكيمائيّة الّتي تُراق عليها لِنحكم بأنّ لا روحَ ولا شيء سوى هذه البضعة الخاضعة للفعل الكيماويّ؟ وهل يُمكن أن يُعتَمد على نتيجةٍ هذه مقدّماتها في تقرير موقفِنا من الحياة والكون، وفي تحديد مصيرنا الّذي نُريد؟ إنّ العلم التّجريبيّ نفسَه يأبَى علينا الأخذ بنتيجةٍ هذه مقدّماتها، فنتيجة كهذه لا يمكن أن تُسمّى نتيجةً علميّةً بِحال.

إذاً، فلا دليل يمكن أن ينهض على أنّ الرّوح الإنسانيّة لا واقع لها، وأكثر من دليل يدلُّ على أنّ الرّوح الإنسانيّة، أعظمُ واقعيّةً من بعض الأشياء الّتي نحسبها واقعيّة.

ما هو الواقعيّ؟ أَهُوَ الشّيء الّذي تُدركهُ حواسُنا؟ لا، لقد أصبحَ هذا التّفسير السّاذج «للواقعيّ» شيئاً بعيداً عن المفهوم العلميّ الحديث، ولو شئنا أن نفسِّر الواقعيّ بهذا التّفسير لَوَجَب علينا أن نكفُر بأَشْيَع الحقائق في حياتنا الحاضرة، وأعني بها الكهرباء. فالكهرباء -كما يقول يعقوب فام في كتابه البراجماتزم [أي الذّرائعيّة]: «لا صورة ذهنيّة لها عندنا، ولا شكل نستطيع أن نراه بِعَين العقل أو نتخيّله، ومع ذلك فمدلوله له وجودٌ ذاتيّ مستقلّ في هذا النّظام الموضوعيّ للكون. وبعبارة أخرى: الكهرباء موجودٌ حقيقيٌّ، وإنْ كان الذّهن لا يَستطيع أن يتخيّلها، لأنّنا نشاهد آثارها وعملها في الحياة اليوميّة».

إذاً، فليس الواقع هو ما نحسّه، وإنّما الواقع هو ما يعمل على صياغة حياتنا بآثاره وإنْ لم يَبلغ علمُنا مدى كُنْهه. وإذا كان هذا هو الواقع فما الّذي يمنع أن تكون الرُّوح حقيقةً من الحقائق الجمّة الّتي تصنَعُ حياتَنا بآثارها؟ إنّ جهلنا بحقيقتها لا يبرِّر نكران وجودها. وقد عرفتَ أنَّ الّذين يُنكرونها يبنون نكرانَهم على ما لا يَصلح أن يكون أساساً للموقف العقليّ الّذي التزَموه تجاه الرُّوح، فالأداة التي اصطنَعوها لمعرفة الرُّوح قاصرة عن أن تُنيلَهُم ما أرادوا.

لقد حَدَسَ القدماء فلم يَهدِهم حَدْسُهم إلى شيءٍ، ولقد جرَّب المُحدثون فلم تَهْدِهِم تجربتُهم إلى شيءٍ، ويَقف الإنسانُ مكتوف اليدَين أمام غياهِب الأسرار، ويُردِّد حُكمَ القرآن في اعترافٍ بالعجز: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء:٨٥.

خُلاصةُ القول

ونَخلص من هذا كلّه إلى القول بأنَّ مُنكِري «المُغيَّبات» ليسوا سوى طائفة من النّاس تنظر إلى الإنسانِ من أحدِ جوانبه، وتَبني أحكامَها على ما ترى غير حاسبة أنّ ثمّة غير هذا الجانب، وأنّ حكمَها على الإنسان قبل الإحاطة به من أقطاره -في الحدود الّتي تَبلغها المعرفة- ضَرْبٌ من الخَبْطِ العشوائيّ الّذي لا يليق بمَن يدَّعي العلمَ ويَستهديه في ما يفعل أو يقول، وهؤلاء أشبه بمَن يَحكم بأنَّ لون الهرم أحمر لمجرَّد أنّه رأى ضلعاً واحداً من أضلاعه بهذا اللّون، قبل أن يرى بقيّة الأضلاع.

وحيث قد عرَفنا أنَّ في الإنسان قوًى وراء جهازه العصبيّ والحشويّ، ووراء غدده وخلاياه، لا نُدركها بما لدينا من وسائل المعرفة، فلا مبرِّر لإنكار «إمكان» أن يكون لدى إنسانٍ من النّاس، بسببِ ما يَتمتَّع به من سُموٍّ روحيٍّ ونقاءٍ داخليٍّ -وهذه صفات قابلة للتَّفاوت- قدرة على معرفة ما يخبِّئُه الغد وتضطمّ عليه أحشاءُ المستقبل.

وإذا كان «يُمكن» أن يوجد إنسانٌ كهذا، فلنقُم بنقلةٍ تُثبتُ أنّ إنساناً كهذا «موجودٌ بالفعل»...